ذم المال والجاه

الحافظ

ابن رجب الحنبلي

مصدر هذه المادة:







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

قال الشيخ الإمام شيخ الإسلام بقية السلف الكرام، زين الدين أو الفرج عبد الرحمن ابن الشيخ شهاب الدين ابن الإمام ابن رجب البغدادي الحنبلي رحمه الله تعالى.

خرج الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**». قال الترمذي: حسن صحيح.

وروي من وجه آخر عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأسامة بن زيد وجابر وأبي سعيد الخدري وعاصم بن عدي الأنصاري ﷺ أجمعين.

قال الشيخ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب: وقد ذكرناها كلها مع الكلام عليها في (كتاب شرح الترمذي).

ولفظ حديث جابر ﷺ: «**ما ذئبان ضاريان باتا في غنم غاب رعاؤها بأفسد للناس من حب الشرف والمال لدين المؤمن**».

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «حب المال».. بدل الحرص.

فهذا مثل عظيم جدًا ضربه النبي ﷺ لفساد دين المؤمن بالحرص على المال والشرف في الدنيا، وأن فساد الدين بذلك ليس بدون فساد الغنم بذئبين ضاريين باتا في الغنم قد غاب عنها رعاها ليلاً، فهما يأكلان في الغنم ويفترسان فيها.

ومعلوم أنه لا ينجو من الغنم من إفساد الذئبين المذكورين والحالة هذه قليل، فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف ليس إفساده لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا وإما أكثر، يشير إلى أنه لا يسلم من دين المرء المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين إلا القليل.

فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا.

ذم الحرص على المال

فأما الحرص على المال فهو نوعان، أحدهما: شدة محبة المال مع شدة طلبه من وجوهه المباحة والمبالغة في طلبه والجد في تحصيله واكتسابه من وجوهه مع الجهد والمشقة.

سبب الحديث:

وقد ورد أن سبب الحديث كان وقوع بعض أفراد هذا النوع، كما أخرجه الطبراني من حديث عاصم بن عدي ﷺ قال: اشتريت مائة سهم من سهام خيبر، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ما ذئبان ضاريان ظلا في غنم أضاعها ربها بأفسد من طلب المسلم المال**

والشرف لدينه».

الحرص على المال يضيع العمر:

قلت: ولو لم يكن في الحرص على المال إلا تضييع العمر الشريف الذي لا قيمه له وقد كان يمكن صاحبه في اكتساب الدرجات الخير، ولو قيل: فاز بالعلى والنعيم المقيم فضيَّعه بالحرص في طلب رزق مضمون مقسوم لا يأتي منه غلا ما قدر وقسم ثم لا ينتفع به بل يتركه لغيره، ويرتحل عنه، فيبقى حسابه عليه ونفعه لغيره، فيجمع لمن لا يحمده ويقدم على من لا يعذره، لكفاه بذلك ذمًا للحرص.

فالحريص يضيع زمانه الشريف ويخاطر بنفسه التي لا قيمة لها في الأسفار وركوب الأخطار لجمع مال ينتفع به غيره كما قيل:

ومن ينفق الأيام في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر
ولا تحسبن الفقر فقر من الغنى
ولكن فقر الدين من أعظم الفقر

قيل لبعض الحكماء: إن فلانًا جمع مالاً. فقال: جمع أيامًا ينفقه فيها؟ قيل: لا... قال: ما جمع شيئًا.

وفي بعض الآثار الإسرائيلية: «الرزق مقسوم والحريص محروم، ابن آدم! إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتى تطلب الآخرة؟».

إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزًا
فما أنت في يوم القيامة صانع؟

ولآخر في هذا المعنى:

يـــا جامعًـــا مانعًـــا والـــدهر يرمقـــه
مفكـــــرًا أي بــــاب منـــــه يغلقـــــه
جمعـــت مـــالاً ففكـــر هـــل جمعـــت لـــه
يـــــا جــــامع المـــال أيامًـــا تفرقــــه
المـــــال عنـــــدك مخـــــزون لوارثـــــه
مـــا المـــال مالـــك إلا يـــوم تنفقـــه
إن القناعـــــة مـــــن يحلـــــل بســـــاحتها
لم يلـــــق في ظلـــــها همًـــــا يؤرقـــــه

قال ابن مسعود ﷺ: «اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله، ولا تحسد أحدًا على رزق الله، ولا تلم أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره، فإن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

ومن كلام بعض السلف: «إذا كان القدر حقًا فالحرص باطل، وإذا كان الغدر في الناس طبعًا فالثقة بكل أحد عجز، وإذا كـــان الموت لكل أحد راصدًا فالطمأنينة إلى الدنيا حمق».

كان عبد الواحد بن زيد يحلف بالله: لحرص المرء على الـــدنيا أخوف عليه عندي من أعدى أعدائه.

وكان يقول: «يا إخوتاه! لا تغبطوا حريصًا علـــى ثـــروة في مكسب ولا مال، وانظروا له بعين المقت له في اشتغاله اليـــوم بمـــا

يريده غدًا في المعاد ثم يبكي».

وكان يقول: «الحرص حرصان: حرص فاجع وحرص نــافع، فأما النافع فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع فحرص المرء على الدنيا».

الحرص على الدنيا معذب صاحبه:

فالحرص على الدنيا معذب صاحبه، مشغول لا يسر ولا يلــذ بجمعه لشغله، فلا يفرغ من محبة الدنيا لآخرته كدًا كدًا، وغفلتــه عما يدون ويبقى.

أنشد بعضهم في هذا المعنى:

لا تغــبطن أخًــا علــى ســعة
وانظــر إليــه بعــين الماقــت القــالي
إن الحــريص لمشــغول بثروتــه
عــن الســرور بمــا يحــوي مــن المــال

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له كان حريصًا على الدنيا: «أما بعد: فإنك أصبحت حريصًا على الدنيا، تخدمها وهي تخرجك عن نفسها بالإعراض والأمراض والآفات والعلل، كأنك لم تر حريصًا محرومًا ولا زاهدًا مرزوقًا ولا ميتًا عن كثير ولا مبتلغًا مــن الــدنيا باليسير».

عاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال له: «يا أخي! أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته وتطلب أنت ما قد كفيته، كأنك يا

أخي لم تر حريصًا محرومًا ولا زاهدًا مرزوقًا».

وقال بعض الحكماء: «أطول الناس غمًا الحسود، وأهنأهم عيشًا القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص، وأخفضهم عيشًا أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامة العالم القنوط».

ولبعضهم في هذا المعنى:

الحرص داء قد أضر بمن ترى إلا قليلاً
كم من عزيز قد رأيت صَيَّره الحرص ذليلاً

وغيره:

كم أنت للحرص والأماني يعبدُ
ليس يجدي في الحرص والسعي إذا لم يكن جدُّ
ما لما قدره الله من الأمر بُدُّ

ولأبي العتاهية يخاطب سلمان الخاسر:

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرصُ أعناقَ الرجال

ومن كلام المأمون: «الحرص مفسدة للدين والمروءة».

وأنشد بعضهم:

حـــــــــرص الحـــــــــريص جنـــــــــون
والصـــــــــبر حصـــــــــن حصـــــــــين
إن قـــــــــــــدر الله شـــــــــــــيئًا
فإنـــــــــــــه ســـــــــــــيكون

* * *

حـــــتى مـــــتى في حـــــل وترحـــــال
وطـــــول ســـــعي وإدبـــــار وإقبـــــال
ونـــــازح الـــــدار لا ينفـــــك مغتربًـــــا
عـــــن الأحبـــــة لا يـــــدرون بالحـــــال
بمشـــــرق الأرض طـــــورًا ثم مغربهـــــا
لا يخطـــر المـــوت مـــن حـــرص علـــى بـــال
ولـــــو قنعـــــت أتـــــاك الـــــرزق في دعـــــة
إن القنـــــوع الغـــــنى لا كثـــــرة المـــــال

ولمحمود الوراق:

أيهـــــا المتعـــــب جهـــــدًا نفســـــه
يطلـــــب الـــــدنيا حريصًـــــا جاهـــــدًا
لا لـــــك الـــــدنيا ولا أنـــــت لهـــــا
فاجعـــــل الهمـــــين همًـــــا واحـــــدًا

النوع الثاني من الحرص على المال:

النوع الثاني من الحرص على المال أن يزيد على ما سبق ذكره في النوع الأول حتى يطلب المال من الوجوه ويمنع الحقوق الواجبة فهذا من الشح المذموم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**»(١).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءكم واستحلوا محارمهم**»(٢).

قال طائفة من العلماء: «الشح هو الحرص الشديد الذي يحمل صاحبه على أن يأخذ الأشياء من غير حلها ويمنعها حقوقها، وحقيقته أن تتشوف النفس إلى ما حرم الله ومنع منه، وأن لا يقنع الإنسان بما أحل الله له من مال أو فرج أو غيرهما، فإن الله تعالى أحل لنا الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وأباح تناولها من وجه حلها، وأباح لنا دماء الكفار والمحاربين وأموالهم، وحرم علينا ما عدا ذلك من الخبائث من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرم علينا أخذ الأموال وسفك الدماء بغير

(١) أبو داود (١٦٩٨) وهو حديث حسن صحيح.
(٢) مسلم (٢٥٧٨).

حقها، فمن اقتصر على ما أبيح له من ذلك فهو مؤمن، ومن تعدى ذلك إلى ما منع منه فهو الشح المذموم، وهو مناف للإيمان، ولهــذا أخبر النبي ﷺ أن الشح يأمر بالقطيعة والفجور والبخل، والبخل هو إمساك الإنسان ما في يده، والشح تناول ما ليس له ظلمًا وعدوانًا من مال أو غيره، حتى قيل إن المعاصي كلها من الشح، وبهذا فسر ابن مسعود رضي الله عنه وغيره من السلف الشح والبخل».

ومن هنا يعلم معنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يجتمع الشح والإيمان في قلب مؤمن**»[1].

والحديث الآخر عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الإيمان الصــبر والسماحة**»[2].

وفسر الصبر بالصبر عن المحارم والسماحة بأداء الواجبات.

وقد يستعمل الشح بمعنى البخل وبالعكس، ولكن الأصل هــو التفريق بينهما على ما ذكرناه.

ومتى وصل الحرص على المال إلى هذه الدرجة نقــص بــذلك الدين والإيمان نقصًا بينًا، فإن منع الواجبات وتناول المحرمات ينقص بهما الدين والإيمان بلا ريب حتى لا يبقى منه إلا القليل.

* * *

(١) أحمد ٢/٢٥٦، ٣٤٣ وهو حديث صحيح.

(٢) وهو حديث صحيح. انظر الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٩٥).

فصل

ذم الحرص على الجاه

وأما حرص المرء على الشرف فهو أشد هلاكًا من الحرص على المال، فإن طلب شرف الدنيا والرفعة فيها والرياسة على الناس والعلو في الأرض أضر على العبد من طلب المال، وضرره أعظم، والزهد فيه أصعب، فإن المال يبذل في طلب الرياسة والشرف.

النوع الأول من الحرص على الجاه:

والحرص على الشرف قسمان: أحدهما: طلب الشرف بالولاية والسلطان والمال، وهذا خطر جدًا، وهو في الغالب يمنع خير الآخرة وشرفها وكرامتها وعزها، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال من حرص على رياسة الدنيا بطلب الولايات أن يوفق، بل يوكل إلى نفسه كما قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: «**يا عبد الرحمن! لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها**»(١).

قال بعض السلف: «ما حرص أحد على ولاية فعدل فيها».

وكان يزيد بن عبد الله بن موهب من قضاة العدل والصالحين،

(١) البخاري رقم (٦٦٢٢).

وكان يقول: «من أحب المال والشرف وخاف الدوائر لم يعدل فيها».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة**»[١].

وفيه أيضًا عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رجلين قالا للنبي ﷺ: يا رسول الله! أمرنا. قال: «إنا لا نولي أمرنا هذا من سأله ولا من حرص عليه»[٢].

مفاسد الحرص على الجاه:

واعلم أن الحرص على الشرف بطلب الولايات يستلزم ضررًا عظيمًا قبل وقوعه في السعي في أسبابه، وبعد وقوعه بالخطر العظيم الذي يقع فيه صاحب الولاية من الظلم والتكبر وغير ذلك من المفاسد.

وقد صنف أبو بكر الآجري – وكان من العلماء الربانيين في أوائل المائة – مصنفًا في أخلاق العلماء وآدابهم وهو من أجل ما صنف في ذلك، ومن تأمله علم منه طريقه السلف من العلماء والطرائق التي حدثت بعدهم المخالفة لطريقتهم، فوصف فيه عالم السوء بأوصاف طويلة، منها أنه قال: «قد فتنه حب (في الدنيا) الثناء والشرف ولمنزلة عند أهل الدنيا، يتجمل بالعلم كما تتجمل

(١) البخاري (٧١٤٨).
(٢) البخاري رقم (٢٢٦١).

بالحلة الحسناء للدنيا، ولا يجمل عليه بالعمل به».

وذكر كلامًا طويلاً إلى أن قال: «فهذه الأخلاق وما يشبهها تغلب على قلب من لم ينتفع بالعلم، فبينا هو مقارب لهذه الأخلاق إذ رغب نفسه في حب الشرف والمنزلة فأحب مجالسة الملوك وأبناء الدنيا، فأحب أن يشاركهم فيما هم فيه من رخاء عيشهم من منزل بهي ومركب هني وخادم شرب ولباس لين، وفراش ناعم وطعام شهي، وأحب أن يُغشى بابه، وأن يسمع قوله ويطاع أمره فلم يقدر عليه إلا من جهة القضاء وطلبه، فلم يمكنه إلا ببذل دينه، فتذلل للملوك وأتباعهم، فخدمهم بنفسه وأكرمهم بماله وسكت عن قبيح ما ظهر من مناكيرهم على أبوابهم وفي منازلهم من أفعالهم وقولهم وفعلهم، ثم قد زين لهم كثيرًا من هذا مدة طويلة واستحكم فيه الفساد ولوه القضاء فذبح بغير سكين، فصارت لهم عليه منة عظيمة وجب عليه شكرهم، فألزم نفسه ذلك لئلا يغضبهم عليه فيعزلوه عن القضاء، ولم يلتفت إلى غضب مولاه؛ فيقطع أموال اليتامى والأرامل والفقراء والمساكين وأموال الوقف والمجاهدين وأهل الشرف بالحرمين وأموالاً يعود نفعها على جميع المسلمين، فأرضى بها الكاتب والحاجب والخادم، فأكل الحرام وأطعم الحرام، وكثر الداعي عليه، فالويل لمن أورثه علمه هذه الأخلاق، وهذا العلم هو الذي استعاذ منه النبي ﷺ وأمر أن يستعاذ منه، وهذا العالم الذي قال فيه النبي ﷺ: «**إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم**

ينفعه علمه»[١].

وكان ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع**»[٢].

هذا كله كلام الإمام أبي بكر الآجري رحمه الله تعالى، وكان في أواخر الثلاثمائة، ولم يزل الفساد بعده يتزايد على ما ذكرناه أضعافًا مضاعفة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

من دقيق آفات حب الجاه:

ومن دقيق آفات حب الشرف طلب الولايات والحرص عليها، وهو باب غامض لا يعرفه إلا العلماء بالله تعالى، والعارفون به، المحبون له،ـ الذين يعادون له من جهال خلقه المزاحمين لربوبيته وإلهيته مع حقارتهم وسقوط منزلتهم عند الله تعالى وعند خواص عباده العارفين به، كما قال الحسن رحمه الله فيهم: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية في رقابهم، أبي الله إلا أن يذل من عصاه».

طلب حب الجاه فيه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته:

واعلم أن حب الشرف بالحرص على نفوذ الأمر والنهي وتدبير أمر الناس، كان القصد بذلك مجرد علو المنزلة على الخالق والتعاظم عليهم وإظهار صاحب هذا الشرف حاجة الناس وافتقارهم إليه،

(١) الطبراني (في الصغير) رقم (٥٠٧) وقد روي موقوفًا بإسناد صحيح. انظر الأحاديث الضعيفة رقم (١٦٣٤).

(٢) مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

وذلهم له في طلب حوائجهم منه.. فهذا نفسه مزاحمة لربوبية الله وإلهيته، وربما تسبب بعض هؤلاء إلى إيقاع الناس في أمر يحتاجون فيه إليه ليضطرهم بذلك إلى رفع حاجاتهم إليه وظهور فقرهم واحتياجهم إليه، ويتعاظم بذلك ويتكبر به، وهذا لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

وفي بعض الآثار أن الله تعالى ليبتلي عبده بالبلاء ليسمع تضرعه.

وفي الآثار أيضًا أن العبد إذا دعا الله تعالى وهو يحبه قال الله تعالى: «يا جبريل! لا تعجل بقضاء حاجته، فإني أحب أن أسمع تضرعه».

فهذه ألأمور أصعب وأخطر من مجرد الظلم وأدهى وأمر من الشرك، والشرك أعظم الظلم عند الله.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته**»(١).

كان بعض المتقدمين قاضيًا، فرأى في منامه كأن قائلاً يقول له: أنت قاض والله قاض. فاستيقظ منزعجًا وخرج عن القضاء وتركه.

---

(١) مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

وكان طائفة من القضاة الورعين يمنعون الناس أن يدعوا بقاضي القضاة فإن هذا الاسم يشبه ملك الملوك الذي ذم النبي ﷺ التشبه به. وقال: «**لا ملك إلا الله**»[(١)]. وحاكم الحاكم مثله أو أشد منه.

ذم طلب المدح والتعظيم من الناس:

ومن هذا الباب أيضًا أن يحب ذو الشرف والولاية أن يحمد على أفعاله ويثني عليها، ويطلب من الناس ذلك، ويتسبب في أذى من لا يجيبه إليه، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح، وربما أظهر أمرًا حسنًا في الظاهر وأحب المدح عليه وقصد به في الباطن شرًا وقصد بتمويه ذلك وترويجه على الخلق، وهذا يدخل في قوله تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ [آل عمران: ١٨٨]. فإن هذه الآية إنما أنزلت فيمن هذه صفته، وهذه الصفة – أعني طلب المدح من الخلق ومحبته والعقوبة على تركه – لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له، ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على عدلهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمد على ذلك لله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله شديد العناية بذلك، وكتب مرة إلى أهل الموسم كتابًا يُقرأ عليهم، وفيه الأمر بالإحسان إليهم وإزالة المظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب: «ولا تحمدوا

---

(١) البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

على ذلك كله إلا الله، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري...».

وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرض لبناهّا اليتامى مشهورة، فإنها كانت لها أربع بنات ففرض لاثنتين منهن وهي تحمد الله، ثم فرض للثالثة فشكرته، فقال: إنما كنا نفرض لهن حيث كنت تولين الحمد أهله، فمري هذه الثلاث يواسين الرابعة.. أو كما قال رحمه الله.

والمقصود أن يعرف أن ذا الولاية إنما هو منتصف لتنفيذ أمر الله، فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العزة لله، وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله تعالى أيضًا.

فالمحبون لله غاية مقاصدهم من الخلق أن يحبوا الله ويطيعوه ويفردوه بالعبودية والإلهية، فكيف من يزاحمونه في شيء من ذلك، فهو لا يريد من الخلق جزاءً ولا شكورًا، وإنما يرجو ثواب عمله من الله، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وقال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مرين، إنما أنا عبد الله ورسوله**»(١).

---

(١) البخاري رقم (٣٤٤٥)، (٦٨٦٣٠) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وكان رسول الله ﷺ ينكر على من لا يتأدب معه في الخطاب بهذا الأدب، كما قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد**»(١).

وقال لمن قال: ما شاء الله وشئت: «**أجعلتني لله عدلاً؟ بل ما شاء الله**»(٢).

فمن هنا كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وأتباعهم وقضاتهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم ألبتة بل إلى تعظيم الله وحده وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

وكان بعض الصالحين يتولى القضاء ويقول: «أنا أتولاه لأستعين به على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله، ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة وهم صابرون، بل راضون بذلك، فإن المحب يتلذذ بما يصيبه من الأذى في رضى محبوبه، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لأبيه في خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل: «يا أبت! لوددت أني غلت بي وبك القدور في الله عز وجل».

---

(١) رواه أحمد ٣٨٤/٥، من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما. انظر الأحاديث الصحيحة رقم (١٣٧).

(٢) أحمد ٢١٤/١، ٢٨٤، ٣٤٧، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده حسن.

وقال بعض الصالحين: «وددت أن جسمي قرض بالمقـــاريض وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا الله عز وجل». فعرض قوله على بعض العارفين فقال: إن كان أراد بذلك النصـــيحة للخلـــق وإلا فـــلا أدري». ثم غشي عليه.

ومعنى هذا أن صاحب هذا القول قد يكون لحظ نصح الخلـــق والشفقة عليهم من عذاب الله وأحب أن يفديهم من عـــذاب الله بأذى نفسه، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته وما يستحقه مـــن الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة، فود أن الخلق قاموا بـــذلك وإن حصل له في نفسه غاية الضرر، وهذا هو مشهد خـــواص المحـــبين والعارفين بملاحظته، عنى ذلك هذا الرجل العارف.

وقد وصف الله تعالى في كتابه المحبين له بـــأنهم يجاهـــدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم.

وفي ذلك يقول بعضهم:

أجـــــد الملامـــــة في هـــــواك لذيـــــذة
حبًـــــا لـــــذكراك فلـــــيلمني اللـــــوم

النوع الثاني من الحرص على الجاه:

القسم الثاني: طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينيـــة كالعلم والعمل والزهد، فهذا أفحش من الأول وأقبح، وأشد فسادًا وخطرًا؛ فإن العلم والعمل والزهد إنما يطلب به ما عنـــد الله مـــن الدرجات العلى والنعيم المقيم والقرب منه والزلفى لديه.

قال الثوري: «إنما فضل العلم لأنه يتقى بـــه الله، وإلا كـــان

كسائر الأشياء».

طلب العلم للدنيا على نوعين:

فإذا طلب بشيء من هذا عرض الدنيا الفاني فهو أيضًا نوعان:

أحدهما: أن يطلب به المال، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمة.

وفي هذا جاء الحديث عن النبي ﷺ: «**من تعلم علمًا مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا في الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»(١)... يعني: ريحها. خرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ.

وسبب هذا – والله أعلم – أن في الدنيا جنة معجلة وهي معرفة الله ومحبته والأنس به والشوق إلى لقائه وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك، فمن دله علمه على دخوله هذه الجنة المعجلة في الدنيا فاز بالجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم رائحة الجنة في الآخرة.

ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعلمه، وهو من أشد الناس حسرة يوم القيامة، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر

---

(١) أبو داود (٣٦٦٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وهو حديث صحيح.

نفيسة لها قيمة عظيمة فباعها ببعرة أو شيء مستقذر لا ينتفع بـــه، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه، بل أقبح وأقبح لذلك من يطلبها بإظهار الزهد فيها، فإن ذلك خداع قبيح جدًا.

وكان أبو سليمان الداراني يعيب على من لبس عباءة وفي قلبه شهوة من شهوات الدنيا تساوي أكثر من قيمة العباءة، يشير إلى أن إظهار الزهد في الدنيا باللباس الديني إنما يصلح لمن فرغ قلبه مـــن التعلق بها بحيث لا يعلق قلبه بها بأكثر من قيمة ما لبسه في الظـــاهر حتى يستوي ظاهره وباطنه في الفراغ من الدنيا.

وما أحسن قول بعض العارفين وقد سئل عن الصوفي فقـــال: الصوفي:

مـــــن لــــــبس الصــــــوف علــــــى الصــــــفا
وســـــــــــلك طريـــــــــــق المصــــــــــــطفى
وذاق الهـــــــــــوى بعـــــــــــد الجفـــــــــــا
وكانــــــت الـــــدنيا منــــــه خلــــــق القفـــــا

ذم من طلب العلم والزهد للرئاسة على الخلق:

النوع الثاني: من يطلب بالعمل والعلم والزهد الرئاســـة عـــل الخلق والتعاظم عليهم، وأن ينقاد الخلق ويخضعوا لـــه ويصـــرفوا وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء أو ليعلـــو به عليهم ونحو ذلك، فهذا وعيده النار، لأن قصده التكـــبر علـــى الخلق في نفسه محرم، فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

وفي السنن عن النبي ﷺ: «**من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»[١]. خرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث كعب بن مالك.

وخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنه وحذيفة رضي الله عنه، وعنده: «**فهو في النار**»[٢].

وخرج ابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتجيزوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**»[٣].

وخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه، وزاد فيه: «**ولكن تعلموه لوجه الله والدار الآخرة**».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**لا تعلموا العلم لثلاث: لتماروا به السفهاء، أو لتجادلوا به الفقهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقولكم وفعلكم ما عند الله، فإنه يبقى ويفنى ما سواه**».

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٢)، وابن ماجه (٢٥٣) من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٩)، وهو حديث حسن.

(٣) ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٩٠) وهو حديث صحيح.

قال: «**إن أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة..**» منهم العالم الذي قرأ القرآن ليقال قارئ، وتعلم العلم ليقال عالم، وأنه يقال له: قد قيل ذلك، وأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.. وذكر في المتصدق ليقال إنه جواد، وفي المجاهد ليقال إنه شجاع [١].

وعن علي رضي الله عنه قال: «**يا حملة العلم! اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف علمهم عملهم ويخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقًا حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا، حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل**».

وقال الحسن: «لا يكون حظ أحدكم من علمه أن يقول له الناس: عالم».

وفي بعض الآثار أن عسى عليه السلام قال: «كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليحدث به، ولا يطلبه ليعمل به؟!»؟

وقال بعض السلف: «بلغنا أن الذي يطلب الأحاديث ليحدث بها لا يجحد ريح الجنة». يعني من ليس له غرض في طلبها إلا الحديث بها دون العمل بها.

---

(١) مسلم (١٩٠٥).

ذم الجراءة على الفتيا:

ومن هذا القبيل كراهة السلف الصالح الجرأة على الفتيا والحرص عليها والمسارعة إليها والإكثار منها.

روى ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «**أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار**».

وقال علقمة: «كانوا يقولون: أجرؤكم على الفتيا أقلكم علمًا».

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة ما منهم من أحد إلا ود أن أخاه كفاه».

وفي رواية: «فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى يرجع إلى الأول».

وعن ابن مسعود ﷺ قال: «إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون».

وسئل عمر بن عبد العزيز عن مسألة فقال: «ما أنا على الفتيا بجريء».

وكتب إلى بعض عماله: «إني والله ما أنا بحريص على الفتيا وما وجدت منها بدًا».

وقال ابن عيينة: «ليس هذا الأمر لمن ودَّ أن الناس احتاجوا إليه، إنما هذا الأمر لمن ود أنه وجد من يكفيه».

وعنه أنه قال: «أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم فيها، وأجهلهم بها أنطقهم».

وقال سفيان الثوري: «أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بدًا من أن يفتوا، وإذا أعفوا عنها كان أحب إليهم».

وقال الإمام أحمد: «من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم، إلا أنه قد تلجئ إليه الضرورة.. قيل له: فأيما أفضل، الكلام أو السكوت؟ قال: الإمساك أحب إلي... قيل له: فإذا كانت ضرورة؟.. فجعل يقول: الضرورة الضرورة! وقال: الإمساك أسلم له. وليعلم المفتي أنه يوقع عن الله أمره ونهيه، وأنه موقوف ومسئول عن ذلك.

قال الربيع بن خثيم: «أيها المفتون! انظروا كيف تفتون».

وقال عمرو بن دينار لقتادة لما جلس للفتيا: «تدري في أي علم قمت؟ وقعت بين الله وبين عباده وقلت هذا يصلح وهذا لا يصلح».

وعن ابن المنكدر قال: «إن العالم داخل بين الله وبين خلقه، فلينظر كيف يدخل بينهم».

وكان ابن سيرين إذا سئل عن الشيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان.

وكان النخعي يُسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول: «ما وجدت

أحدًا تسأله غيري؟ قد تكلمت ولو وجدت بدًا ما تكلمت، وإن زمانًا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء».

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «إنكم لتستفتوننا استفتاء قوم كأنا لا نُسأل عما نفتيكم به».

وعن محمد بن واسع قال: «أول من يدعى إلى الحساب الفقهاء».

وعن مالك ﷺ أنه كان إذا سئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

وقال بعض العلماء لبعض المفتين: «إذا سئلت عن المسألة فلا يكن همك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك أولاً».

وقال لآخر: «إذا سئلت عن الشيء فتفكر فإن وجدت لنفسك مخرجًا فتكلم وإلا فاسكت».

وكلام السلف في هذا كثير جدًا يطول ذكره واستقصاؤه.

ذم الدخول على الملوك:

ومن هذا الباب أيضًا كراهة الدخول على الملوك والدنو منهم، وهو الباب الذي يدخل منه علماء الدنيا إلى نيل الشرف والرئاسات فيها.

وخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من سكن البادية جفا، ومن**

اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلاطين افتتن»[(١)].

وخرج أحمد وأبو داود نحوه من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، وفي حديثه: «**وما ازداد أحد من السلطان دنوًا إلا ازداد من الله بعدًا**»[(٢)].

وخرج ابن ماجه من حديث ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرؤون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك، كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا**»[(٣)].

وخرجه الطبراني ولفظه: «**إن أناسًا من أمتي يقرؤون القرآن ويتعمقون في الدين يأتيهم الشيطان يقول: لو أتيتم الملوك فأصبتم من دنياهم واعتزلتموهم بدينكم، ألا ولا يكون ذلك، كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم – يعني – إلا الخطايا**».

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**تعوذوا بالله من جب الحزن**».. قالوا: وما جب الحزن؟.. قال: «**واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة**».. قيل: يا

---

(١) أحمد ٣٥٧/١، وأبو داود (٢٨٥٩)، والترمذي (٢٢٥٧)، والنسائي ١٩٥/٧، وهو حديث صحيح كما في صحيح الجامع (٦٢٩٦).
(٢) أبو داود (٢٨٦٠)، وأحمد ٣٧١/٢، ٤٤٠.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٥٥).

رسول الله! من يدخله؟ قال: «**القراء المراءون بأعمالهم**».

وخرج ابن ماجه نحوه وزاد فيه: «**وإن من أبغض القــراء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجورة**»(١).

ويروى من حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ نحوه.

ما يخشى على من دخل على الملوك:

من أعظم ما يخشى على من دخل علـى الملـوك الظلمـة أن يصدقهم بكذبهم ويعينهم على ظلمهم ولو بسكوت عن الإنكـار عليهم، فإن من يريد بدخوله عليهم الشرف والرياسة وهو حريص عليهما لا يقدم على الإنكار عليهم، بل ربما حسن لهم بعض أفعالهم القبيحة تقربًا إليهم ليحسن موقفه عندهم ويساعدوه على غرضه.

وقد خرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابـن حبـان في صحيحه من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه عـن الـنبي ﷺ قـال: «**سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد على الحـوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه وهو وارد على الحوض**»(٢).

وخرج الإمام أحمد معنى هذا الحديث من حديث حذيفـة رضي الله عنه وابن عمر رضي الله عنه وخباب بن الأرت وأبي سعيد الخدري والنعمان بن

(١) الترمذي (٢٣٨٤).
(٢) أحمد ٢٤٣/٤، والترمذي (٢٢٥٩) والنسائي ١٦٠/٧-١٦١، وابن حبان (١٥٧١-١٥٧٣) وهو حديث صحيح.

بشير ﷺ.

نهي السلف عن الدخول على الملوك:

وقد كان كثير من السلف ينهون عن الدخول على الملوك لمن أراد أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضًا.

وممن نهى عن ذلك عمر بن عبد العزيز وابن المبارك والثـــوري وغيرهم من الأئمة.

وقال ابن المبارك: «ليس الآمر الناهي عندنا من دخل علـــيهم فأمرهم ونهاهم». وقال: «الآمر الناهي من اعتزلهم».

فتنة الدخول على الأمراء:

وسبب هذا ما يخشى من فتنة الدخول عليهم، فإن النفس قـــد تخيل للإنسان إذا كان بعيدًا أنه يأمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم، فإذا شاهدهم فربما مالت النفس إليهم، لأن محبة الشرف كامنة في النفس لحسنت له، ولذلك يداهنهم ويلاطفهم، وربما مال إليهم وأحبهم، ولاسيما إن لاطفوه وأكرموه وقبل ذلك منهم، وقد جرى ذلـــك لعبد الله بن طاوس مع بعض الأمراء بحضرة أبيه طاوس فوبخه طاوس على فعله ذلك.

وكتب سفيان الثوري إلى عبَّاد بن عبَّاد، وكـــان في كتابـــه: «وإياك والأمراء أن تدنوا منهم أو تخالطهم في شيء من الأشـــياء، وإياك أن تخدع ويقال لك لتشفع وتدرأ عن المظلوم أو ترد مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فجار الفقراء ســـلمًا، ومـــا

كفيت عن المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم، وإياك وحب الرئاسة، فإن الرجل يكون حب الرئاسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقد نفسك واعمل بنية، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت، والسلام».

كراهة السلف للشهرة:

ومن هذا الباب أيضًا كراهة أن يشهر الإنسان نفسه بالعلم والزهد والدين أو بإظهار الأعمال والأقوال والكرامات حتى يراد وتلتمس بركته ودعاؤه وتقبل يده، وهو محب لذلك ويقيم عليه ويفرح به ويسعى في أسبابه.

ومن هنا كان السلف الصالح يكرهون الشهرة غاية الكراهة، منهم أيوب والنخعي وسفيان ،أحمد وغيرهم من العلماء الربانيين، وكذلك الفضيل وداود الطائي وغيرهما من الزهاد والعارفين، وكانوا يذمون أنفسهم غاية الذم ويسترون أعمالهم غاية الستر.

دخل رجل على داود الطائي فسأله: ما جاء بك؟ فقال: جئت لأزورك.. فقال: أما أنت فقد أصبحت خيرًا حيث زرت في الله، ولكن أنا أنظر ماذا لقيت غدًا إذا قيل لي: من أنت حتى تزار؟ من الزهاد أنت؟ لا والله. من العباد أنت؟ لا والله. من الصالحين؟ لا والله.. وعدد خصال الخير على هذا الوجه، ثم جعل يوبخ نفسه ويقول: يا داود! كنت في الشبيبة فاسقًا، فلما شبت صرت مرائيًا، والمرائي شر من الفاسق.

وكان محمد بن واسع يقول: «لو أن للذنوب رائحة ما استطاع أحد أن يجالسني».

وكان إبراهيم النخعي إذا دخل عليه أحد وهو يقرأ في المصحف غطاه.

وكان أويس وغيره من الزهاد إذا عرفوا في مكان ارتحلوا عنه.

وكان كثير من السلف يكره أن يطلب منه الدعاء، ويقول لمن يسأله الدعاء: أي شيء أنا؟

وممن روي عنه ذلك عمر بن الخطاب وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، وكذلك مالك بن دينار.

وكان النخعي يكره أن يسأل الدعاء.

وكتب رجل إلى أحمد يسأله الدعاء فقال أحمد: «إذا دعونا نحن لهذا، فمن يدعوا لنا؟».

ووصف بعض الصالحين اجتهاده في العبادة لبعض الملوك فعزم على زيارته، فبلغه ذلك فجلس على قارعة الطريق يأكل، فوافاه الملك وهو على تلك الحالة، فسلم عليه فرد عليه السلام وجعل يأكل أكلاً كثيرًا ولا يلتفت إلى الملك، فقال الملك: ما في هذا خير، ورجع. فقال الرجل: الحمد لله الذي رد هذا عني وهو لائم.

وهذا باب واسع جدًا. ها هنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به. وهذا من دقائق أبواب

الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: «كفى بالنفس إطراء أن يذمها على الملأ، كأنك أردت بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه».

فصل

الطريق إلى علاج حب النفس للمال والرياسة

وقد تبين بما ذكرناه أن حب المال والرياسة والحرص عليهما يفسد دين المرء حتى لا يبقى منه إلا ما شاء الله كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وأصل محبة المال والشرف حب الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباع الهوى.

قال وهب بن منبه: «من اتباع الهوى الرغبة في الدنيا، ومن الرغبة فيها حب المال والشرف، ومن المال والشرف استحلال الحرام».

وهذا كلام حسن، فإنه حب يحمل المال والشرف على الرغبة في الدنيا، وإنما تحصل الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى، لأن الهوى داعٍ إلى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها، والتقوى تمنع من اتباع الهوى وتردع عن حب الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

وقد وصف الله تعالى أهل النار بالمال والسلطان في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

العلو المحمود والعلو المذموم:

واعلم أن النفس تحب الرفعة والعلو على أبناء جنسها، ومن هنا نشأ الكبر والحسد، ولكن العاقل ينافس في العلو الدائم الباقي الذي فيه رضوان الله وقربه وجواره، ويرغب عن العلو الفاني الزائل الذي يعقبه غضب الله وسخطه وانحطاط العبد وسفوله وبعده عن الله وطرده عنه، فهذا هو العلو الفاني الذي يذم وهو العتو والتكبر في الأرض بغير الحق.

وأما العلو الأول والحرص عليه فهو محمود، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال الحسن: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة».

وقال وهيب بن الورد: «إن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل».

وقال محمد بن يوسف الأصبهاني العابد: «لو أن رجلاً سمع برجل أو عرف رجلاً أطوع لله منه، كان ينبغي له أن يحزنه ذلك».

وقال غيره: «لو أن رجلاً سمع برجل أو عرف رجلاً أطوع لله منه فانصدع قلبه لم يكن ذلك بعجب».

وقال رجل لمالك بن دينار: «رأيت في المنام مناديًا ينادي: أيها الناس! الرحيل، الرحيل، فما رأيت أحدًا ارتحل إلا محمد بن واسع». فصاح مالك وغشي عليه.

ففي درجات الآخرة يشرع التنافس وطلب العلو في منازلهم والحرص على ذلك بالسعي في أسبابه، وأن لا يقنع الإنسان منها بالدون مع قدرته على العلو.

كيف تزهد في العلو الذي يعقب الندم؟:

وأما العلو الفاني المنقطع الذي يعقب صاحبه غدًا حسرة وندامة وذلة وهوانًا وصغارًا؛ فهو الذي يشرع الزهد فيه والإعراض عنه، وللزهد فيه أسباب عديدة، فمنها نظر العبد إلى سوء عاقبة الشرف في الدنيا بالولاية والإمارة لمن لا يؤدي حقها في الآخرة، ومنها نظر العبد إلى عقوبة الظالمين والمتكبرين ومن ينازع الله رداء الكبرياء.

وفي السنن [(١)] عن النبي ﷺ: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار؛ طينة الخبال**». خرجه الترمذي وغيره من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ.

(١) البخاري في (الأدب المفرد) (٥٥٧)، والترمذي (٢٤٩٤)، وأحمد ١٧٩/٢، وهو حديث حسن.

وفي رواية لغيره من وجه آخر في هذا الحديث: «**يطؤهم الناس بأقدامهم**».

وفي رواية أخرى من وجه آخر: «**يطؤهم الجن والإنس والدواب بأرجلهم حتى يقضي الله بين عباده**».

واستأذن رجل عمر ﷺ في القصص على الناس فقال له: «إني أخاف أن تقص عليهم فتترفع عليهم في نفسك حتى يضعك الله تحت أرجلهم يوم القيامة».:

ومنها نظر العبد إلى ثواب المتواضعين لله في الدنيا بالرفعة في الآخرة، فإن من تواضع لله رفعه.

ومنها – وليس هو في فكرة العبد ولكنه من فضل الله ورحمته – ما يعوض الله عباده العارفين به الزاهدين فيما يفنى من المال والشرف مما يعجله الله لهم في الدنيا من شرف التقوى وهيبة الخلق لهم في الظاهر ومن حلاوة المعرفة والإيمان والطاعة في الباطن، وهي الحياة الطيبة التي وعدها الله لمن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، وهذه الحياة الطيبة لم يذقها الملوك في الدنيا ولا أهل الرئاسات والحرص على الشرف، كما قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

ومن رزقه الله ذلك اشتغل به على طلب الشرف الزائل والرياسة الفانية، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].. وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ

جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وفي الآثار يقول الله عز وجل: «أنا العزيز فمن أراد العزة فليطع العزيز، ومن أراد عز الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى».

وكان حجاج بن أرطأة يقول: «قتلني حب الشرف». فقال له سوار: «لو اتقيت الله شرفت».

وفي هذا المعنى يقول القائل:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبد تقي نقيصة
إذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم

وقال صالح الباجي: «الطاعة أميرة والمطيع لله أمير مؤمَّر على الأمراء، ألا ترى هيبته في صدورهم؟ إن قال قبلوا وإن أمر أطاعوا».

ثم يقول صالح: «يحق لمن أحسن خدمتك ومننت عليه بمحبتك أن تذلل له الجبابرة حتى يهابوه لهيبته في صدورهم من هيبتك في قلبه، وكل الخير من عندك بأوليائك».

وقال بعض السلف الصالح: «ما أسعد بالطاعة من مطيع إلا وكل الخير في الطاعة، ألا وإن المطيع لله ملك في الدنيا والآخرة».

وقال ذو النون: «من أكرم وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده؟».

دخل محمد بن سليمان أمير البصرة على حماد بن سلمة وقعد بين يديه يسأله فقال له: «يا أبا سلمة! ما لي كلما نظرت إليك ارتعدت فرقًا منك؟ قال: لأن العالم إذا أراد بعلمه وجه الله خافه كل شيء، وإن أراد أن يكثر به الكنوز خاف من كل شيء».

ومن هذا قول بعضهم: «على قدر هيبتك يخافك الخلق، وعلى قدر محبتك لله يحبك الخلق، وعلى قدر اشتغالك بالله تشتغل الخلق بأشغالك».

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يومًا يمشي ووراءه قوم من كبار المهاجرين، فالتفت فرآهم فخروا على ركبهم هيبة له، فبكى عمر ﷺ وقال: «اللهم إنك تعلم أني أخوف لك منهم فاغفر لي».

وكان العمري الزاهد قد خرج إلى الكوفة ليعظ الرشيد وينهاه، فوقع الرعب في عسكر الرشيد لما سمعوا بنزوله حتى لو نزل بهم عدو مائة ألف نفس لما زادوا على ذلك.

وكان الحسن – لا يستطيع أحد أن يسأله هيبة له، وكان خواص أصحابه يجتمعون ويطلب بعضهم من بعض أن يسألوه عن المسألة، فإذا حضروا مجلسه لم يجترئوا على سؤاله حتى ربما مكثوا على ذلك سنة كاملة هيبة له.

وكذلك كان مالك بن أنس يهاب أن يسأل حتى قال فيه قائل:

يدع الجواب ولا يُراجع هيبة
والسائلون نواكس الأذقان

نـــــور الوقــــار وعـــــز ســـــلطان التقـــــى
فهـــــو المهيـــــب ولـــــيس ذا ســـــلطان

وكان بديل العقيلي يقول: «من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله عليه بوجهه وأقبل بقلوب العباد عليه، ومن عمل لغير الله صرف الله وجهه عنه وصرف قلوب العباد عنه».

وقال محمد بن واسع: «إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل عليه بقلوب المؤمنين».

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله: «طلقت الدنيا ثلاثًا بتاتًا لا رجعة لي فيها، وصرت إلى ربي وحدي وناديته بالاستعانة: إلهـــي! أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك. فلما عرف صدق الدعاء من قلبي واليأس من نفسي، كان أول ما ورد علي من إجابة هذا الدعاء؛ أن أنساني نفسي بالكلية ونصب الخلائق بين يدي مع إعراضي عنهم».
وكان يزار من البلدان، فلما رأى ازدحام الناس عليه قال:

وليـــــتني صـــــرت شـــــيئًا
مـــــن غـــــير شـــــيء أعـــــد
أصـــــبحت للكـــــل مـــــولى
لأنـــــني لـــــك عبـــــد
لكـــــن كتمـــــان حـــــالي
أحـــــق بي وأســـــد
وفي الفـــــؤاد أمـــــور
مـــــا تســـــتطاع تعـــــد

كتب وهب بن منبه إلى مكحول: «أما بعد! فإنــك أصــبت بظاهر علمك عند الناس شرفًا ومنزلة، فاطلب بباطن علمك عنــد الله منزلة وزلفى، واعلم أن إحدى المنزلتين تمنع من الأخرى».

خطر الوقوف عند العلم الظاهر:

ومعنى هذا أن العلم الظاهر من تعلــم الشــرائع والأحكــام والفتاوى والقصص والوعظ ونحو ذلك مما يظهر للناس يحصل بــه لصاحبه عندهم منزلة وشرف، واعلم الباطن المودع في القلوب من معرفة الله وخشيته ومحبته ومراقبته والأنس به والشــوق إلى لقائــه والتوكل والرضى بقضائه والإعراض عن عــرض الــدنيا الفــاني والإقبال على جوهر الآخرة الباقي، كل هذا يوجب لصاحبه عنــد الله منزلة وزلفى، وإحدى المنزلتين تمنع من الأخرى، فمن وقف مع منزلته عند الخلق واشتغل بما حصل له عندهم بالعلم الظــاهر مــن شرف الدنيا، وكان همه حفظ هذه المنزلة عند الخلــق وملازمتــها وتربيتها والخوف من زوالها؛ كان ذلك حظه من الله تعالى وانقطع به عنه، فهو كما قال بعضهم: «ويل لمن كان حظه من الله الدنيا».

وكان السري السقطي يعجبه ما يرى من علم الجنيد وحســن خطابه وسرعة جوابه فقال له يومًا وقد سأله عن مسألة فأجــاب وأصاب: أخشى أن يكون حظك من الدنيا لسانك. فكان الجنيد لا يزال يبكي من هذه الكلمة.

ومن اشتغل بتربية منزلته عند الله تعالى بما ذكرنا مــن العلــم الباطن وصل إلى الله فاشتغل به عما سواه، وكان له في ذلك شغل

عن طلب المنزلة عند الخلق، ومع هذا فإن الله يعطيه في قلوب الخلق والشرف عندهم، وإن كان لا يريد ذلك ولا يقف معه بل يهـــرب منه أشد الهرب ويفر أشد الفرار خشية أن يقطعه الخلق عن الحـــق جل جلاله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].. أي في قلوب عباده.

وفي الحديث: «إن الله إذا أحب عبدًا نادى: يـــا جبريـــل! إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، ثم يحبه أهل الســـماء، ثم يوضـــع لـــه القبـــول في الأرض»(١).

طلب شرف الآخرة يحصل معه شرف الدنيا:

وبكل حال فطلب شرف الآخرة يحصل معه شرف في الـــدنيا وإن لم يرده صاحبه و لم يطلبه، وطلب شرف الدنيا لا يجامع شرف الآخرة ولا يجتمع معه، والسعيد من آثر الباقي على الفاني كمـــا في حديث أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى علـــى مـــا يفنى»(٢). خرجه الإمام أحمد وغيره.

وما أحسن ما قال أبو الفتح البستي الشاعر:

أمـــــران مفترقـــــان لســـــت تراهمـــــا

---

(١) البخاري (٣٢٠٩)، (٦٠٤٠)، (٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أحمد ٤/٤١٢، وابن حبان (٢٤٧٣).

يتشـــوقان لخلطـــة وتلاقـــي
طلـــب المعـــاد مـــع الرياســـة والعلـــى
فـــدع الـــذي يفـــنى لمـــا هـــو بـــاقي

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

***

الفهرس

